

د. جمال المجايدة : قمة حلف الناتو

I.

تابعت للمرة الاولى اعمال قمة منظمة حلف شمال الاطلنطي «الناتو» في ريغا عاصمة لاتفيا يومي 28 و29 نوفمبر 2006 بمشاركة رؤساء دول وحكومات 26 بلدا . عضوا في الناتو .

امضيت وقتا طويلا في الجو من ابوظبي الى لندن ومن لندن الى ريغا لكي اصل الى ذلك البلد الواقع على بحر البلطيق قبالة فنلندا وامضيت وقتا اطول في حوارات مع سياسيين واعلاميين وخبراء في ريغا لكي اتعرف الى الاسباب التي دعت الناتو لعقد قمته التاسعة عشرة في لاتفيا التي تعتبر بعدد سكانها اصغر من اي مدينة في دول الناتو . غير ان الجواب جاء ببساطة هو ان الناتو قرر عقد القمة لأول مرة في تاريخ الاطلسي في جمهورية سوفياتية سابقة نكايه في روسيا واغاضة لها نظرا لدور روسيا المخالف للسياسة الاميركية والمتعارض معها في ايران والعراق واميركا الجنوبية .

رغم الاجراءات الامنية التي لم تشهد لها مدينة ريغا الصغيرة مثيلا منذ تأسيسها قبل 800 سنة الا ان سكان العاصمة الذين التزموا منازلهم بسبب تعطيل كافة الدوائر والوزارات والمدارس والجامعات حتى يوم الجمعة لحين مغادرة قادة دول الحلف كانوا سعداء لان يروا للمرة الاولى في تاريخ مدينتهم هذا الحشد من الرؤساء العالميين والوفود والجيوش الامنية التي احاطت بمقر لقاء القادة في الاستاد الرياضي وسط العاصمة ريغا والذي تم عزله تماما عن بقية اجزاء المدينة . بأسوار حديدية يحرسها آلاف الجنود ورجال الامن

كانوا سعداء حقيقة ولم ينزعجوا من الاغلاق التام للمدينة لانهم يعتقدون ان قمة الناتو اعادت الى لاتفيا الاعتبار بعد السنوات الخمسين التي امضتها تحت السيطرة الشيوعية السوفياتية .

بصراحة اقول ان الجهد المبذول من ادارة الدبلوماسية العامة في حلف الناتو بقيادة نيكولا دي سانتس و من الاف المتطوعين اللاتفيين والامانة العامة لمنظمة الناتو والذي حول ريغا تلك العاصمة الصغيرة إلى واحدة من أكثر المدن حماية وحراسة في العالم لحماية زعماء دول الناتو كان جهدا غير عادي ربما لا تقدر عليه الدول الكبيرة فقد اشرف على الأمن فيها أكثر من 9000 جندي ورجل امن كما تولت حماية القمة وحدات متخصصة في مكافحة أسلحة الدمار الشامل وفرت الامن والهدوء الى نحو 500 مشارك بينهم 2000 صحفي من مختلف دول العالم لدرجة ان القمة مرت بسلام وكأنها احتفال على الطريقة الاطلسية بالقرب من حدود روسيا العظمي هي فعلا كانت كذلك حفل للقادة في دار الاوبرا الوطنية وآخر للوفود وحفل موسيقي ساهر

II.

ابرز ما تمخضت عنه القمة الاطلسية في ريغا هو توجيه الدعوة للانضمام الى حلف الناتو على الأرجح في عام 2008 إلى كرواتيا وألبانيا ومقدونيا وربما إلى جورجيا أيضا كما اكدت القمة استمرارية العمل بسياسة الأبواب المفتوحة وارسلت برسائل ايجابية أيضا إلى صربيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود. وركزت على تنويع عملية الإصلاحات العسكرية داخل الحلف وبناء تعاون أكبر وأعمق مع الشركاء الأمنيين العالميين وعلى بحث المهمتين العسكريتين الرئيسيتين للحلف في الوقت الحاضر في أفغانستان وكوسوفا

واضح ان الحلف سيقوم ببناء علاقات شراكة اكبر مع الدول التي تتبنى القيم نفسها التي يتبناها الحلف والتي تشارك معه في تنفيذ مهمات عسكرية عديدة في العالم مثل أستراليا واليابان ونيوزيلاندا .

وعلى الرغم من ذلك فان اكثر من خبير ومسؤول اكد لكاتب هذه السطور ان القمة في ريغا كانت رمزية لأنها تعقد لأول مرة في دولة من جمهوريات الاتحاد . السوفياتي سابقا .

القمة ارسلت إشارة أيضا بشأن الرغبة في تعميق التعاون المستقبلي بين الناتو والاتحاد الأوروبي ولاسيما ان 19 دولة من دول الحلف تتمتع بالعضوية في الوقت نفسه في الاتحاد الأوروبي، كما ناقشت بصراحة مليئة بالحدة مسألة التمويل، الأمر الذي لفت إليه في نهاية الشهر الماضي أمين عام الحلف ياب دي هوب شيفر عندما انتقد في براغ بعض دول الحلف ومنها تشيكيا بسبب عدم تخصيصها الأموال اللازمة للدفاع ولذلك يتوقع أن توصي القمة دول الحلف بتخصيص 2% من الإنتاج القومي الإجمالي لشؤون الامن والدفاع . يقول السكرتير العام للناتو ياب دي هوب شيفر ان قمة الحلف في ريغا لم تكن «قمة توسيع» مشيرا في نفس الوقت إلى أن المشاركين فيها اكدوا على سياسة الأبواب المفتوحة التي يمارسها الناتو . ولم يستبعد دي هوب شيفر مع ذلك أن تناقش قضية توسيع الناتو في قمة الحلف التالية ربيع عام 2008 ، القمة اكدت اذن استمرارية العمل بسياسة الأبواب المفتوحة شرط توافر المعايير اللازمة لدى الدول التي تريد الانضمام إلى الحلف وارسلت إشارة ايجابية نحو صربيا والبوسنة والهرسك وجمهورية الجبل الأسود غير أن هذه الدول . سيحتتم عليها الانتظار كي تتلقى الدعوة لاحقا للانضمام إلى الحلف

لا ادري ماذا كان قول الأمين العام للناتو ان القمة في ريغا اكدت ان الحلف لا يريد أن يكون شرطيا وإنما يريد تعزيز الشراكة بالمفهوم الدولي لها وتقوية التعاون بين الحلف واستراليا وبين الحلف وكوريا الجنوبية واليابان، وهو في واقع الامر شرطي للولايات المتحدة ومصالح حلفائها، لذا فانه يحاول التغطية على هذا الواقع بالقول ان التهديدات التي تتعرض لها دول الحلف لها صفة عالمية

. ولذلك فان الحلف يريد تكثيف الحوار مع الشركاء العالميين

III.

تعتبر موسكو اكثر من اي وقت مضى ان وجود حلف شمال الاطلسي عند حدودها يشكل تهديدا لها وهي لم تعد تكتفي بمعارضة توسيع حلف شمال الاطلسي بل باتت تفضل ممارسة الضغوط على الدول المرشحة للانضمام اليه

فبعد اكثر من سنتين على دخول دول البلطيق الثلاث الى الحلف وفي حين تطرق اوكرانيا وجورجيا المنبثقتان ايضا عن الاتحاد السوفياتي السابق، ابواب الحلف الاطلسي، لا يزال الروس واعضاء الحلف يجهدون للتوصل الى ايقاع طبيعي لعلاقاتهم

ورغم تأسيس مجلس بين الحلف الاطلسي وروسيا رسميا في العام 2002 مع قيام التحالف الكبير في مواجهة الارهاب بعد هجمات 11 سبتمبر ، لا يزال التشكيك المتبادل قائما

ان اجتماع الدول الست والعشرين الاعضاء في الحلف في ريغا بالقرب من حدود روسيا الاتحادية يؤكد ان هذا الاجتماع محاولة استباقية نظرا لان الكرملين بقيادة بوتين بات يشن الهجوم من زاوية اخرى، كما اعلن الامين العام للحلف الاطلسي ياب دي هوب شيفر ان الحلف «لا يملك الوسائل» التي تسمح له بلعب دور «شرطي العالم، كما انه «لا يطمح ليصبح كذلك

ويرى محللون أنه في الوقت الذي يعود فيه الدور الذي تضطلع به دول شرق أوروبا الاعضاء في حلف شمال الاطلسي «الناطو» بالنفع بشكل عام على السياسة الخارجية الاميركية فإنه يتعين على الولايات المتحدة بذل جهود أكبر لدمج هذه الدول في التحالف على صفتي الاطلسي. خلاصة القول ان حضور الرئيس جورج بوش في ريغا كان بمثابة فصل من فصول الدبلوماسية العامة للبيت الابيض الاميركي، فمشاركته في قمة حلف شمال الاطلسي كانت محاولة لاقتناع حلفائه في الناطو تأمين المزيد من الدعم في افغانستان لتحسين اداء المهمة في هذا البلد وجعل تقاسم المخاطر القتالية اكثر تساويا

ويحدر بعض المسؤولين الاميركيين المقربين لبوش من أنه من دون ارسال المزيد من القوات إلى افغانستان، وفي ظل تنامي الهجمات التي تشنها طالبان، فان حلف الناطو يخاطر بعدم تحقيق النصر الساحق في افغانستان، الذي تقتضيه هيبة الحلف

IV.

اتخذت لقاءات القادة الاطلسيين طابعا غير رسمي اذ التقوا ليلة السابع والعشرين من نوفمبر على مائدة عشاء ضخمة اقامتها رئيسة لاتفيا الدكتور فاريا فايكي فرايبيرغا في مسرح دار الاوبرا الوطنية في ريغا، وكان اللقاء الاكثر

رومانسية بين قادة الاطلسي الذي اعقب العشاء في دار الاوبرا في تلك الامسية الموسيقية اذ استمعوا إلى ابروا تروي حكايات من التاريخ اللاتفي ولوحات من الحب والجمال في تلك البلاد التي خضعت للنظام الشيوعي لفترة نصف قرن من الزمن

وفي حين كانت انغام الاوبرا تتصاعد على مسمع من قادة حلف الاطلسي يتقدمهم جورج بوش الرئيس الاميركي وقادة العالم الغربي كله، كانت اصوات المدافع والصواريخ والسيارات المغلومة تفتك بالعراقيين والفلسطينيين والافغان دون ان يجد القادة الذي يحكمون العالم، أي حل لهذه الازمات المتفجرة في الشرق الاوسط واسيا . حيث اشار المتحدث باسم حلف الناتو في مؤتمر صحفي أمس الى ان القمة استبعدت قضية الشرق الاوسط تماما من اجندتها السياسية واكتفت بالتركيز على العراق وافغانستان وشرق اوروبا

ويبدو ان القضية الفلسطينية ليست من صلاحيات الناتو اذ يقول احد المعلقين البارزين في القمة ويدعى سايمون فلاير ان هذه القضية من اختصاص واشنطن فقط ولا تسمح اسرائيل لأي طرف آخر بالدخول على الخط خشية فرض حل سياسي لا ترغب فيه الدولة العبرية. وهذا ما أكده الامين العام للناتو بان القمة لم تنطرق من قريب ! او بعيد إلى قضية الشرق الاوسط لأنها خارج نطاق صلاحيات الحلف

لقد أضفى حفل الاوبرا والعشاء الفاخر هالة من الرفاهية والفخامة على واحد من اهم القمم العسكرية في العالم، فيما ارتفعت وتيرة التوتر في الكرملين الروسي على وقع اجتماعات قادة حلف الاطلسي في جمهورية سوفياتية سابقة للمرة الأولى منذ انتهاء الحرب الباردة وانهيار الشيوعية وكان الروس الحاضر الغائب عن هذا التجمع السياسي والدفاعي الكبير في لاتفيا

ورغم انها لم تخرج بقرارات حاسمة إلى ان القمة ركزت في الظروف المستجدة على القضايا التي تعتبرها الولايات المتحدة أساسيات على أجندتها وهي الوضع في «العراق وأفغانستان و«مكافحة الإرهاب

V.

- القرار الذي اتخذته القمة الاطلسية أيضا بتحويل الحوار الأطلسي المتوسطي الذي تشارك فيه سبع دول متوسطة هي مصر والأردن والمغرب وموريتانيا وتونس والجزائر والمغرب إلى تعاون وشراكة على غرار الشراكة الحالية بين الحلف وأوكرانيا، وبين الحلف وروسيا، ولكن بعد موافقة الدول الأعضاء في هذا الحوار، وبعد بحث حالة كل دولة على حدة

وقيل في ريفا إنه سيتم البدء في الاتصال مع هذه الدول لبحث كيفية وضع مسألة الشراكة موضع التنفيذ. والصعوبة تكمن في كيفية تطوير علاقات الناتو مع الدول غير الأعضاء. فحتى الآن، قد ضمت الناتو 26 دولة وأقامت علاقات حوار الشراكة السلمية مع 20 دولة وعلاقات الحوار مع 7 دول من البحر الأبيض المتوسط

وعلى هذا الأساس، أعلنت الولايات المتحدة مؤخرا أن الرئيس الأميركي جورج بوش اقترح خلال هذه القمة بشكل رسمي بأن تقم الناتو علاقات الشراكة العالمية مع الدول ذات المفاهيم والمصالح الأمنية المشتركة بما فيها أستراليا واليابان وكوريا الجنوبية والسويد وفنلندا. إلا أن ذلك قد أثار حفيظة روسيا ومعارضة بعض الدول الأعضاء مثل فرنسا وألمانيا.

وقد وافقت خمس عشرة دولة من الدول الأعضاء ودولة شريكة على استثمار 650 مليون دولار لبناء أسطول صغير من طائرات النقل من طراز سي-17 وتستطيع قوة الرد التابعة لحلف الناتو التي تضم 25,000 جندي، وهي قوة الحلف للعمل السريع، العمل في أي زمان ومكان يتطلبان عملها. كذلك يتزايد دور الحلف كمدرب، وهو يقوم حاليا بتطبيق برامج للتدريب في العراق ودارفور وأفغانستان. وتود الولايات المتحدة أن يقدم الحلف التدريب بشكل أوسع في أفريقيا والشرق الأوسط وبناء الروابط مع هاتين المنطقتين الهامتين.

في الختام اقول انه ولدى تشكّل حلف الناتو في البداية، ضم 12 دولة، ثم توسّع ليضم اليونان وتركيا عام 1952، وألمانيا الغربية عام 1955 وكانت الولايات المتحدة وما زالت القوة العسكرية المهيمنة عليه واعتبر الاتحاد السوفياتي الهيمنة الأميركية وضم الناتو ألمانيا الغربية، تهديداً مباشراً له. وفي عام أسس تحالفاً مضاداً حمل اسم «حلف وارسو»، حلّ بعد انهيار الاتحاد 1955 السوفياتي في عام 1991.

VI.

اخيرا زرت لاتفيا . فقد كنت منذ زمن طويل افكر في كيفية الوصول الى تلك الدولة تقع على بحر البلطيق بجوار ليتوانيا واستونيا وفي مواجهة فنلندا على الضفة الاخرى من البحر. وصلت الى مطار ريغا عاصمة لاتفيا مساء يوم 26 نوفمبر لحضور قمة حلف الاطلسي التي عقدت هناك للمرة الاولى في لاتفيا احدى 2006 جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق والتي انضمت الى الاتحاد الاوروبي عام 2004 . غم ان الساعة كانت تشير الى الثالثة الا ان الليل كان يرخي سدوله في ريغا . وكنت استغرب كيف يمكن للمرء ان يمضي عمره في ليل طويل كليل ريغا . التي تعرف الصيف صدفة وترى الشمس في ايام قلائل . طبيعة اخرى مبهجة صاغها خالق الكون رب العالمين . بعد اجراءات التأشيرة الطويلة نوعا ما . ركبنا السيارة متجهين الى فندق افياتار القريب من وسط المدينة . وبسبب الاجراءات الامنية المشددة اضطر السائق الى سلك دروب مظلمة متلوية وسط اشجار الغابات والمزارع المحيطة بريغا ضعت شنطة السفر في الغرفة ونزلت الى الشارع للتعرف على المدينة . قيل لي ان التنزه ليلا صعب جدا لان المدينة كانت مغلقة بالكامل بسبب اجراءات الامن لحماية قادة 25 دولة عضو في الناتو . تناولت العشاء في مقهى قديم في احد مراكز التسوق وبصعوبة توصلت نادلة المقهى الى ما اريد تناوله من طعام وكانت تمضي طوال الوقت جالسة مع والدتها في المطبخ لدرجة ان الزبائن على قلة عددهم كانوا يظنون ان لا احد يعمل في الخدمة !ركبت الباص وعدت الى الفندق لاتحاور صدفة مع الطالبة

الجامعية زانة روجينييسي غَمَّ زَمَى مكم من منظمي مؤتمر القمة اللتين تم اختيارهن الى جانب 1600 شاب وفتاة من طلاب الجامعات في لاتفيا لخدمة ضيوف القمة . وتقديم التسهيلات الممكنة لهم .

وعقب النقاش الذي تعرفت خلاله على اوجه الحياة في لاتفيا التي تبدو غامضة على الكثيرين امثالي . توجهت الى المركز الاعلامي للحصول على بطاقة الدخول الى قمة الاطلسي في المركز الرياضي الضخم وسط ريغا . مشيت على الاقدام وتوقفت عند حواجز كثيرة واقنعت رجال الامن بما اريد وسمحوا لي بالدخول الى المركز ليلا بعد اتصالات عدة . امضيت ساعة تقريبا للوصول الى المركز وكنت اخشى الانتظار اكثر للحصول على البطاقة . الا ان المنظمين خيبيوا ظني فقد حصلت على البطاقة في اقل من خمس دقائق . وعدت الى الفندق ثانية . لاخوض نقاشا بلا حدود مع الطلبة اللاتفيين حول اهمية الانسلاخ عن الاتحاد السوفياتي والانضمام الى الحلف الاطلسي والاتحاد الاوروبي دفعة واحدة . كلهم مؤيدون لما جرى ويجري غير انهم ليسوا متفائلين بالمستقبل اذا استمر التجاهل الغربي لهم باعتبارهم دولة عضوا في الاتحاد الاوروبي لان معدل دخل الفرد في لاتفيا لايزيد على المائتي يورو فيما ! يصل الى الفي او ثلاثة الاف يورو في اوروبا الغربية

VII.

تعرفت على ملامح لاتفيا فقط وانا اتحاور مع طلبة جامعة ريغا في بهو الفندق الصغير الوادع معظم اشهر الشتاء. وقبيل وصولي اليها لم اكن اعرف اسم رئيسها. في اليوم التالي عرفت ان الرئيس امرأة هي الدكتورة فاريا

لاتفيا هي دولة صغيرة الحجم مُحاطة من الشمال ومن الغرب ببحر البلطيق، استونيا من الشمال الشرقي وروسيا من الشرق، روسيا البيضاء من الجنوب الشرقي ولتوانيا من الجنوب . وتملك لاتفيا 12000 نهر صغير و3000 بحيرة ومساحة كبيرة من ارضها مُغطاة بالغابات ولهذا فانها تشبه جنة صغيرة على الارض. خليج ريغا الواقع في شمال غرب لاتفيا هو خليج صغير و امتداد لبحر البلطيق. العاصمة ريغا تقع على هذا الخليج. غير ان نهر داو غافهَهَف الذي يصب في خليج ريغا هو اكبر . الانهار واكثرها جاذبية ورومانسية وجمالا

ايضا لاتفيا دولة قليلة السكان اذ يصل عددهم الى مليوني وثلاثمائة الف نسمة. حوالي 60% من السكان هم لاتفيون، يُشكل الروس نسبة 30% من السكان وبالتالي هم اكبر جالية أجنبية. لدرجة أنهم في بعض المدن يُشكلون غالبية السكان. و هناك أقليات من روسيا البيضاء وأوكرانيا وبولندا ولتوانيا

وتقول زانه طالبة العلاقات الدولية في جامعة ريغا ان التنوع العرقي في البلاد يرجع الى حقبة الاتحاد السوفياتي. فيما يظل الروس هم الاقوى رغم انهم ثلث عدد السكان ويمتلكون الصحف والاعلام وقطاع الخدمات والتجارة ويقال ان . المافيا الروسية تلعب دورا مهما في الاقتصاد المحلي

اللغة الرسمية هي اللاتفية. الا ان اللغة الروسية لاتزال لغة رسمية على مايببدو لانها لغة الحوار الدارج في الدولة بوجه عام. حتى ابناء الروس من الجيلين الثاني والثالث يتحدثون بالروسية فيما بينهم .

بدت اللغة اللاتفية غريبة بالنسبة لي لانني اول مرة اسمعها وتبدو صعبة للغاية وهي تتبع اللغات البلطيقية اللتي بدورها تنحدر من اللغات الهندو اوروبية. ولكنها ليست جرمانية و لاسلافية

لقد شعرت عاملة الفندق الروسية بغضب شديد وانا اتحدث بالانجليزية مع طالبة من جامعة ريغا اسمها غَمَم زَمَى مكم والتي لم تتردد في تعداد مساوي الغزو الروسي لبلادها. فجأة سمعتها ترطن معهم بالروسية وبصوت عال. وفهمت منهم انها غاضبة من الحوار وتعتبره تشويها لسمعة بلادها الاصلية. قلت لها عبر مترجم .لاتحزني كثيرا فلاشئ يستدعي الحزن بعد زوال الاتحاد السوفياتي كله عن الخريطة وبالتالي ان كل ماحصل في الوقت كان باطلا وما بني على باطل فان طريقه الى الزوال حقا. وهو المصير الذي ستلاقيه اسرائيل ايضا لانها تسير على نفس المنوال ! تريد اخضاع الشعب الفلسطيني بالقوة وتريد الارض والسلام معا

VIII.

كنت حريصا طوال الوقت ان تنتهي الاجراءات الامنية المشددة بسرعة لكي اجوب وسط الحي القديم او مايعرف باسم ريغا القديمة «اولد تاون»، ويقال ان اللاتفين بدأوا باستيطان المنطقة حول العاصمة الحالية ريغا في القرن العاشر الميلادي وتقول المراجع التاريخية ان لاتفيا وقعت على مر التاريخ تحت سيطرة الدانماركيين،السويديين، الألمان، البولنديين والروس. الألمان احتلوا لاتفيا وجمهورية البلطيق عام 1915 أثناء الحرب العالمية الأولى(1914-1915). في عام أعلن الاستقلال، واعترف الاتحاد السوفياتي بلاتفيا عام 1920 وأعلن قيام 1918 جمهورية برلمانية. وفي عام 1921 انضمت إلى عصبة الامم، وشكلت حكومة فاشية برئاسة كارلس أولمانس عام 1934

ويعتبر الكثيريين ممن التقيتهم في ريغا ان الاسوأ في حياة لاتفيا وقع ابان الاحتلال السوفياتي عقب اتفاق هتلر-ستالين عام 1939 الذي أعطى الضوء الأخضر للاتحاد السوفياتي باحتلال جمهوريات البلطيق ومن ضمنها لاتفيا ، والذي . تم في عام 1940 أثناء الحرب العالمية الثانية (1939-1945) بدون أي سابق انذار

بعد نشوب الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي، قامت الأولى باحتلال جمهوريات البلطيق عام 1941، الى أن أعاد الجيش الأحمر السوفياتي إحتلالهم وإعادةتهم تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي وقبعت لاتفيا خمسين عاما تحت السيطرة الشيوعية دون ان تقدر او تتكيف على الفكرة الشيوعية اطلاقا . وتقول طالبة العلاقات الدولية زانه، ان الشعب اللاتفي مع جيرانه في لتوانيا واستونيا قام

بالنضال السياسي السلمي للاستقلال في عهد غورباتشوف بدءا من العام 1988 اي عندما ضعفت هيبة الاتحاد السوفياتي وانسكار شوكتة العسكرية الرهيبة ليحصل بالتالي على الاستقلال والاعتراف بلاتفيا مع دول البلطيق دوليا وبسرعة كبيرة لتدشين عصر انتهاء الحرب الباردة واستطباب حلفاء موسكو السابقين في فلك الاتحاد الاوروبي والحلف الاطلسي لانهاء الاتحاد السوفياتي إلى الابد وهذا هو هدف عقد القمة الاطلسية الـ 19 في لاتفيا لاكثر ولاقل

IX.

مشيت على الاقدام من فندق افياتار في شارع فالديمار المؤدي الى قلب الحي القديم في ريغا ، وتحت رشرشات المطر الخفيف ووقع اصوات المحتفلين بنجاح القمة وازالة الاجراءات الامنية واصلت طريقي الى القلب القديم ، تناولت طعام العشاء برفقة احد الاصدقاء في مطعم الدوم المتخصص في وجبات الاسماك الطازجة من بحر البلطيق وكان عشاء شهيا على الطريقة التقليدية لاسيما وان عمر المطعم يتجاوز المائتي عام .

بعد العشاء بدأت الجولة من دار الاوبرا الوطنية التاريخية التي احتضنت زعماء الاطلسي ثم عرجت الى ريغا القديمة التي تضم العديد من المباني التاريخية من متاحف وكنائس وابنية اشبه بالمتاحف الجميلة كانت مخصصة للنقابات والبرلمان ودار البلدية منذ حوالي 800 عام ، وفي قلب المدينة القديمة وضعت اليونسكو بصماتها في لوحة برونزية محفورة ومتبثة على الارض الصخرية تفيد بأن كل تلك المباني مسجلة لدى اليونيسكو في قائمة التراث الانساني العالمي كاحد اهم الابنية الفنية التي خلفها الانسان للبشرية .

وجدتني فجأة في قلب التاريخ الانساني الحافل بالفن والابداع وريغا التي تفتح ذراعيها لكل من يزورها بهجة وترحابا هي متحف التاريخ وارض الحضارة والفن والموسيقى . ابرز المباني اللافتة لنظر الزائر كاتدرائية ريغا التي بنيت في القرن الثاني عشر وكنسية بطرس المبنية على الطراز الغوثي الشهير في القرون الوسطي. وفي ميدان ليف توجد اقدم الابنية السكنية المأهولة منذ اكثر من ثمانية قرون تعرف باسم الاخوة الثلاثة وتعبر عن اصالة فن المعماري في ريغا منذ قديم الزمان . ريغا القديمة بصراحة هي متحف كبير للتاريخ الذي يجسد نضال وصبر شعب لاتفيا على بحر البلطيق ومقاومته للاحتلالات المتعاقبة والتي كان آخرها الاحتلال السوفياتي . وقد اقام الحكام الجدد لاتفيا بعد التحرر من الاتحاد السوفياتي السابق متحفا في الحي القديم في ريغا يؤمه السياح والزوار من مختلف دول العالم وقد شيد على هيئة سجن معلق اسود اللون عدا لوحة بيضاء تغلو المبني وقد كتب عليها متحف الاحتلال السوفياتي منذ عام 1940 الى 1991 ويضم المبني مشاهد وصور ومآسي الاحتلال ومعاناة اللاتفيين تحت الحكم العسكري الشيوعي لفترة تزيد على الخمسين عاما . يقال ان ريغا هي دولة صغيرة لانها منذ ان كانت ميناء للامبراطورية السويدية في القرن الخامس عشر اخترلت حضارات اوروبا وثقافتها العلمانية والدينية والفنية كلها وتجسد ذلك في مبانيها وتراثها التي لاتزال

تحافظ عليها بقوة . ولثرائها العلمي والفني في القرون الوسطى كانت هانوفر
الالمانية تابعة لمدينة ريغا في ظل الامبراطورية السويدية كما ان فنلندا كانت
. تعيش على خيرات ريغا من حركة التجارة الى الصناعة في ذلك الوقت

X.

لقد اكد المؤرخون ان سور ريغا القديم والقلاع المحيطة به كان الاقوى في
القرن الثاني عشر في صد الغزوات نظرا لطريقة تشييده التي وفرت الحماية لأهل
المدينة القديمة، ولا يزال السور يطل على المدينة من أعلى في وسطها النابض
بالحياة والحركة ليل نهار والذي تحيط به المباني الجماعية الفريدة التي تضم
منازل في الادوار العليا ومطاعم ومقاه في الطوابق السفلية تحت الارض والتي يزيد
طول المبني منها اكثر من كليومتر تقريبا ومشيدة وفق طراز معماري يوحي بالرهبة
والجمال النابع من طبيعة تلك البلاد المحصورة مابين النهر والبحر

ميخائيل ايسنتشايين المعمارى الرائد أعطى فنه وحبه لمدينة ريغا القديمة
والذي لاتزال بصماته على معظم الابنية الفريدة في الحي القديم منذ القرن الثامن
عشر يخلده الناس بروية فنه كل يوم والحفاظ عليه كذاكرة تاريخية لريغا

في المنطقة المحيطة بشارع اليزابيتز أسلوب العمارة والتحف التي تزين
المباني تؤكد ان ريغا كانت عاصمة ثرية وغنية جدا لأن اللوحات والمنحوتات
الرخامية التي تزينها لاتقدر بثمن، فقد كانت المدينة عاصمة للفن الحديث وكانت
موطنًا للفنانين والعلماء والموسيقيين الا ان الاهمال اعترها بعد وصول جحافل
الجيش السوفياتي اليها في مطلع اربعينيات القرن الماضي

دار الأوبرا الوطنية في قلب ريغا القديمة لاتزال هي معقل الفن هناك وهي
واحدة من اشهر دور الأوبرا في العالم واستقبلت قادة حلف الأطلسي الـ 25 ليلة
السابع والعشرين من نوفمبر 2006 لقضاء أمسية موسيقية، ويقال ان تلك الدار سبق
عصرها لروعة تصميمها وفقا للطراز الباروكي المطعم بالنمط الإغريقي القديم

ويقال ان الموسيقار غايدون كريمير عازف الكمان الشهير أعاد الروح لدار
الأوبرا عقب توقيع ميثاق الثورة على الحقبة الشيوعية السوفياتية عام 1991
ولا يمر يوم واحد دون حدث فني وموسيقي ليس في دار الأوبرا فحسب بل في ريغا
القديمة كلها

XI.

المنطقة المطلة على ضفاف نهر دوغافا تثير الدهشة فأينما جلس الزائر يسترق
النظر الى الحي القديم فانه لن يغادر المكان بسهولة فهناك فقط يتترك بصره للتأمل
في ابداع الانسان، وانت تقطع المسافة مابين شطري النهر الوداع شتاء فوق الجسر
التاريخي لا تشعر ايضا بمرور الوقت فالاضواء الخافتة للكنايس ودار الرئاسة في

تلك القلعة الشامخة تعطي شعورا بالعظمة، هناك في داخل القلعة يوجد مقر الحكم وكرسي السلطة تجلس عليه امرأة ذات شخصية قوية هي الدكتورة فاريا فايكي فرايبيرغا التي تحكم لاتفيا منذ ثلاث سنوات عبر الانتخابات وهي شخصية قوية ومحبة في الشارع اللاتفي والغربي، فهي الزعيم الوحيد الذي حكم لاتفيا دون أن يتكلم اللغة الروسية؟ فالدكتورة فاريا هي كندية الجنسية تتقن الانجليزية والفرنسية والالمانية وأستاذة جامعية مرنة وسهلة ومتواضعة ذات ابتسامة دائمة، وحققت نجاحا في بلادها التي عادت اليها بعد الانسحاب السوفياتي، نجحت لانها تتحدث بلسان الغرب أميركا وأوروبا وتتجاهل لسان الشرق الروسي تماما، وسألتني خلال لقائي معها في مقر قمة الاطلسي في ريغا عن انطباعي عن لاتفيا وقلت لها انني سعيد بالزيارة الاولى لي الى هناك، كما قالت لي إنها راغبة في القيام بزيارة الي دولة الامارات للتعرف الى قيادتها السياسية واقامة علاقات اقتصادية متميزة، وتعتبر ان تجربة دولة الامارات الاقتصادية مثلا يحتذى به لانها تقرأ الكثير عن الامارات وتسمع الكثير من القادة ومن اصدقائها الشخصيين الذين يزورون الامارات كم هذه الدولة الخليجية جميلة وهادئة ومستقرة وغنية وتزخر بالفرص الواعدة. اثناء اللقاء شكرت الطلبة المتطوعين للعمل في تنظيم القمة وتبادلت معهم الضحكات والاحاديث التي لا تخلو من الفكاهة وكيف هي تركت عائلتها لفترة طويلة لانشغالها في استقبال ووداع 25 رئيسا من قادة دول حلف الناتو دون ان تتمكن من دخول مطبخ بيتها لصنع فنجان من القهوة اللاتفية.

تهتم الدكتورة فاريا بالعلاقات الشخصية مع قادة الغرب وتقول لي انها صديقة قريبة جدا من الرئيس الفرنسي جاك شيراك، لدرجة انه قرر حضور عيد ميلادها في 6 ديسمبر 2006 وقدم لها هدية متواضعة عبارة عن كتاب من التاريخ الفرنسي كما انها ارسلت اليه هدية مماثلة في عيد ميلاده ايضا خلال هذا العام الا انها رفضت الخوض في انعكاس قريبا من قادة الغرب على علاقتها مع زعيم روسيا القوي فلاديمير بوتين، وترى ان التعاون مع روسيا مهم ولا يقل اهمية عن التعاون

XII.

تنشط في ريغا القديمة السياحة الدينية اذ ان المدينة كانت هي الوحيدة في اوروبا كلها التي تضم خمس ديانات لخمس كنائس مسيحية، فكنيسة الدوم العملاقة وكنيسة ببيتز تتبع الطائفة اللوثرية، فيما تتبع كنيسة سانت جاكوب الرومان الكاثوليك اللاتفيين، اضافة الى الكنيسة الانجليكانية والارثوذكسية ومعابد اليهود.

هذه المواقع الدينية التي تحيط بها اجواء التسامح الديني والثقافي تجعلها موطنا للسياح من كل الدول المجاورة باستثناء الدول العربية التي لم تصدر سياحا بعد الى هناك، ربما لاسباب كثيرة منها عدم وجود رحلات جوية مباشرة او لعدم وجود سفارات ومكاتب سياحية لاتفية في العواصم العربية او ربما لنقص الترويج السياحي والتجاري اللاتفي في العالم العربي، الامر الذي يؤدي الى جهل السائح العربي

بامكانات لاتفيا السياحية على مدار العام

بقي ان نعرف ان الثقافة اللاتفية تشكل جزءاً من ثقافات دول شمال أوروبا وليس وسطها او شرقها الذي كان يدين بالشيوعية في الحقبة السوفياتية السابقة

فالجاليات الأجنبية المقيمة في لاتفيا كالروسية أحضرت معها ثقافات أجنبية أخرى، والتي أحياناً أوجدت خلافات لعدم انسجامها التام في المجتمع اللاتفي وعدم تقبل اللاتفيين لهم

فعلى سبيل المثال خرجت في شوارع العاصمة اللاتفية ريغا قبل ايام أول مسيرة لذوي الميول الجنسية المثلية تشهدها لاتفيا، وقد شارك في المسيرة نحو 300 شخص بالرغم من معارضة كبار المسؤولين بمن فيهم رئيس الوزراء أيجارس كالفينيس والزماء الدينيون الذين رفضوا مثل هذه العادات الشاذة الغربية عن تفكير اللاتفيين وطريقة ونمط حياتهم المحافظ الى حد كبير . بالطبع هذه ثقافة واردة او مستوردة ترفضها النخبة السياسية والدينية ولن تصمت طويلا اذا تكرر الامر حتى ولو احتجت كل منظمات حقوق الدفاع عن الشواذ في الغرب، هكذا قال لي الاعلامي ! اللاتفي ادريان هوريانليك

اللاتفيون يريدون بلادهم ان تبقى نظيفة - كما هي الآن - خالية من الجريمة والشذوذ وخالية من المخدرات والدعارة وان تظل كذلك واحة مريحة فسيحة للزائر والمقيم